تجليات المقاومة في الشعر العربي المعاصر

الدكتور محمود السيّد

نحاول في هذا البحث الموجز أن نقف على مفهوم المقاومة وأشكالها، مؤكدين أن الشعر من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على تجلّي الفعل المقاوم فهو رسول الدفاع عن الأرض وإنسانها، ونشير إلى شعراء حملوا راية المقاومة على الصعيد العالمي، لنقف وقفة مستأنية على تجليات المقاومة في الشعر العربي المعاصر خاصة.

أولاً– مفهوم المقاومة وأشكالها

المقاومة هي حق الدفاع عن النفس والأرض والعقيدة والقيم، وكان يعبر عنها في تراثنا العربي بالجهاد، فمواجهة العدو هو الجهاد الأصغر، ومواجهة النفس ومغالبة الهوى هو الجهاد الأكبر، كما جاء في الحديث النبوي الشريف، ذلك لأن بناء النفس من الداخل يعد من أصعب الأمور وأشقها، والشخصية التي تقاوم شتى أنواع المغريات، وتكون محصنة داخلياً هي التي يعتمد عليها في الملمات، وتكون العامل الأول في النجاح في مقاومة الأعداء، وهذا ما عبّر عنه حكيم المعرة عندما يقول:

صلّ وصم وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسكِ
جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعه لم يُلف بالمتماسكِ

وما عبّر عنه الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي في قوله:

ليس التعبد عزلة وتنسكاً في الدير أو في القفر أو في الغاب
لكنه ضبط الهوى في عالمٍ فيه الغواية جمة الأسباب

فمن كان محصناً داخلياً، لا تغويه المغريات التي يحاول أعداء الأمة استمالته إليها وإغراقه فيها، فلا يضعف أمامها، كان مقاوماً حقاً على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

ولسنا الآن في صدد الحديث عن هندسة الإنسان وبنائه البناء المتوازن والمتكامل والمتطور من جميع الوجوه جسمياً وعقلياً ونفسياً واجتماعياً وإنسانياً وجمالياً، فهذا موضوع آخر يحتاج إلى بحوث متعددة، وسنقتصر في بحثنا هذا على مقاومة المحتل، وكيف تجلّى الفعل المقاوم للاحتلال في شعرنا العربي.

لقد كفلت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والأعراف الدولية والفطرة الإنسانية حق الدفاع عن النفس ومقاومة المحتل للأرض. وتتخذ المقاومة أشكالاً متعددة، فكل فعل يعبر في جوهره عن رفض الاحتلال، أو أي تصرف يبدي ممانعة لمشروعه، يعد فعلاً مقاوماً، فقتال المحتل والتعبئة النفسية ضده ومقاطعته، والعمل السياسي المنظم للمظاهرات والاعتصامات، وعدم المشاركة في مشروعات الاحتلال السياسية، ذلك كله يعد ضرباً من ضروب المقاومة.

وإذا كانت المقاومة تهدف إلى تحرير الأرض والإنسان فإن وسائل تحقيق هذا الهدف تتعدد ضروبها،

فقد تكون المقاومة مسلحة، وقد تكون سياسية، أو ثقافية أو مدنية تمثل فعل الجماهير التلقائي على أنه ردة فعل ضد العدوان والاحتلال والقهر والإذلال.

وحيثما حلّ الاحتلال فثمة مقاومة، إذ لولا الاحتلال ما عرفت المقاومة، فكل احتلال يؤدي إلى مقاومة على النحو الذي عرفته شعوب الأرض كافة، تلك الشعوب التي رفضت الهيمنة والاحتلال، وناضلت حتى حصلت على حريتها واستقلالها.

وإن عمليات المقاومة ضد سلطات الاحتلال هي دفاع عن النفس والوطن في وجه عدوان الاحتلال وتعسفه وتجاوزه لمبادئ القانون الدولي والإعلان العالمي لحقوق الإنسان واتفاقيات جنيف لعام 1949.

ومن هنا كانت المقاومة بما فيها المقاومة المسلحة وسيلة الشعب المضطهد للدفاع عن حقه في الحياة والحصول على استقلاله ونيل حريته، وهي تمثل إرادة أبناء هذا الشعب من أجل قضاياه العادلة في الحرية والكرامة والسيادة على أرضه.

وثمة إجماع في العالم على صون حق الأفراد والشعوب المضطهدة في المقاومة، وهو حق أقرته الشرائع والمواثيق الدولية، وتمرد عليه الكيان الإسرائيلي الإرهابي العنصري الاستيطاني هازئاً بالقوانين الدولية وبالشرائع كافة، وتؤيده في أعماله الإجرامية الولايات المتحدة الأمريكية حتى بات الجلاّد هو الضحية، وغدت الضحية هي الجلاّد، وغدا المقاوم الذي سلبت حقوقه إرهابياً، وهذا لا تقره أي شريعة في هذه الدنيا، وقد عبر الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد عن ذلك قائلاً:

سلوهم بحق الذي يعبدون بأي الشرائع هذا يكون؟
نشرد في كل صقع بعيد ونفنى ليستمتع الآخرون؟

ومن المفارقات المدهشة في أيامنا أنه صار يطلق أعداء الأمة على المقاومين المناضلين والمنافحين عن حقوقهم وأرضهم صفة الإرهاب، وأصبح هؤلاء المناضلون إرهابيين مجرمين في نظر الصهاينة ومن دار في فلكهم، في الوقت الذي أضحى فيه المحتلون الصهاينة المجرمون مدافعين عن أنفسهم وعن حقهم في الحياة وأمنهم واستقرارهم، فإذا كان دفاع أبناء فلسطين عن حقهم وأرضهم يعد إرهاباً وإجراماً فأنعم به من إرهاب وإجرام، وها هو ذا الشاعر يوسف الخطيب يقول لهؤلاء الأعداء:

أنا مجرم، أنا حاقدٌ، أنا سيءٌ حتى تعود إلى ذويها الدار

وتعد قصيدة «أنا مع الإرهاب» لنزار قباني من أكثر ماكتبه جرأة وتحدياً للكيان الإسرائيلي الإرهابي والنظام العالمي المزدوج المعايير.

كما أن الشاعر محمود حمود يفنّد مقولات الأعداء إذ يقول:

لأني أزرع الزيتون في أرضي
ومن كدّي محاصيلي

ولم أبـــد لهـــم طاعـــة
وأمشـــي غـــير هيّـــاب
أنـــا لاشـــك إرهـــابي

* *

لأني لا أقـــول لكـــم
خـــــذوا أرضـــــي
خـــــذوا عرضـــــي
خـــذوا راحـــي وأكـــوابي
أنـــا لاشـــك إرهـــابي

* *

لأني قلـــت لم أركـــع
ولم أذعـــن ولـــن أخضـــع
ولـــو مـــن قـــامتي قطَّـــع
عـــدوّ الله أعصـــابي
أنـــا لاشـــك إرهـــابي

* *

ومن هنا كان التفريق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة أمراً على درجة كبيرة من الأهمية في عالمنا المعاصر الذي فقد توازنه، وتجمدت مشاعره، وصار يقف إلى جانب الطغاة، ويغض الطرف عن المستضعفين غير عابئ بأنات الثكالى، وآهات المعذبين، وتشريد الآمنين، وإبادة البشر، وهدم البيوت على رؤوس أصحابها، واقتلاع الشجر.

ثانياً– من شعراء المقاومة في العالم

أشاد الفلاسفة والمفكرون بدور الشعر في الحياة فها هو ذا شكسبير يقول: «تذهب العواصف بأقوى التماثيل، وتظل ذاكرة الناس محتفظة ببيت من الشعر على قاعدة التمثال».

ويقول فولتير: «الشاعر الحقيقي هو الذي يهز النفس ويلينها» ويقول دوبوفلر: «حاجة المجتمع إلى الشعراء كحاجة الليل إلى النجوم»، ويقول شللي: «إن في الشعر شيئاً من الألوهية».

والشعر المقاوم هو الذي يهز النفوس الجامدة، ويتلتل الهمم الخامدة، وما أجمل قول جميل صدقي الزهاوي:

إذا الشـعر لم يهـززك عنـد سماعـه فلـيس خليقـاً أن يقـال لـه شـعرُ

والواقع أن الشعر هو شعلة الأرض وبركان الحياة والموت ورسالة التبليغ والتغيير.

ويعد الشعر من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على تجلي المقاومة فيه، لأنه فن الذيوع والانتشار نظراً إلى ما يحويه بناؤه الموسيقي في اختيار الألفاظ، ومن ثم انتقالها من الفم إلى الأذن إلى القلب، ومن فم إلى فم، وهي تحمل وهج العاطفة وتأججها وحرارة الانفعال وشدته، وهذا ما يجعل الشعر هو فن المقاومة بمعناها الوطني، فدوره لا يقل أهمية عن حمل السلاح.

ومن الشعراء الذين قاوموا النازية الشاعر الفرنسي «أراجون»، فها هو ذا يصرخ في وجه المحتلين النازيين داعياً إلى مقاومتهم قائلاً: «ليست فرنسا الجريحة إلا وطني، وليست الحرية إلا حياتي أو موتي، لأنها حياة وطني المسلوب أو موته».

ولم تكن البطولة في شعر المقاومة عند الشاعر الفرنسي «إيلوار» بطولة أفراد فقط، ولا بطولة تاريخ فقط، وإنما هي إضافة إلى ذلك كله بطولة العاطفة الفرنسية التي لا تقهر.

وإذا كان الشعر الفرنسي في مقاومة الاحتلال النازي يتجه إلى التاريخ والروح والحضارة والعاطفة فإن الشعر السوفييتي في مقاومة النازية كان يتجه إلى صورتين أساسيتين هما الإنسان والأرض، الإنسان الروسي والأرض الروسية، والأرض هي الوطن، وترابها هو تراب الوطن.

ولا يمكننا أن ننسى الشاعر الإسباني «لوركا» الذي مجد البطولة في شعره، وفضح جرائم الفاشيين المستبدين، وشاعر شيلي «نيرودا» الذي حارب إلى جانب الشعب الإسباني في قتاله ضد الفاشية.

وفي تركيا ألهب شعر «ناظم حكمت» الوجدان الوطني، ولم يقتصر شعره على إلهاب الوجدان الوطني في تركيا وحدها، وإنما امتد إلى غيرها من بلدان العالم المعادية للاستعمار.

وكان للشاعر البلغاري «فابتزاروف» مواقف بطولية رائعة في نضاله ضد الفاشية، وعندما حكم عليه بالإعدام علّق على هذا الحكم قائلاً: لقد عملت وناضلت في سبيل سعادة شعبي ووطني، فإذا ما كان عليّ أن أُعاقب فأنا مستعد لتلقي العقوبة»، وعندما نفذ الإعدام صرخ في وجه جلاديه قائلاً:

من يسقط في معركة الحرية

لا يموت أبداً...لا يستطيع أن يموت!

وكان الشعر الفيتنامي يمثل أنموذجاً للبطولة والمقاومة في مواجهة أبشع ألوان العدوان الحديث الذي تقوده الإمبريالية الأمريكية على نطاق العالم أجمع، وها هو ذا الشاعر الفيتنامي يقول:

البنادق والقنابل ليست طريقنا إلى الحياة

فلم نكن أبداً أصدقاء للحرب،

ولكنهم أقبلوا مسلحين حتى الأسنان

فهل نسلم أنفسنا للعبودية؟ كلا

وأكد الشعر الفيتنامي أن البطولة ليست في امتشاق السلاح فحسب، وإنما تتجاوز هذه الخطوة اليسيرة على المواطن الفيتنامي إلى مقاومة الموت من الداخل. فالموت الخارجي على يد الأعداء لم تعد له السطوة على النفوس كما هي عليه الحال في البلدان الأخرى، وإنما الموت الذي يقاومه المناضل الفيتنامي في شعره وينتصر عليه في حياته هو الموت الداخلي، هو موت النفس في داخل الإنسان.

ثالثاً– تجليات المقاومة في الشعر العربي المعاصر

لم يكن الشعر العربي المقاوم وليد العصر الحديث، وإنما له في التاريخ جذور عميقة. ولسنا الآن في مجال حصره في الحضارات القديمة، وإنما نكتفي بما أشار إليه الشاعر سعد بن ناشب في قوله:

سأغسل عني العار بالسيف جالباً ... عليَّ قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن داري وأجعل هدمها ... لعرضيَ من باقي المذمة حاجبا
فإن تهدموا بالغدر داري فإنها ... تراث كريم لا يبالي العواقبا

وما أشار إليه شاعر تمجيد القوة في تراثنا العربي المتنبي عندما يقول:

إلى أيّ حينٍ أنت في زيّ محرم ... وحتى متى في شقوةٍ وإلى كم؟
وإن لم تمت تحت السيوف مكرَّماً ... تمتْ وتقاسِ الذل غير مكرّم
فثبْ واثقاً بالله وثبة ماجدٍ ... يرى الموتَ في الهيجا جنى النحل في الفم

وفي قوله:

ألذّ من المُدام الخندريس ... وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاةُ الصفائح والعوالي ... وإقحامي خميساً في خميسِ
فموتي في الوغى شرف لأني ... رأيت الموت في أرب النفوسِ

وقوله:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

وفي عصرنا الحديث عندما ابتليت أمتنا العربية بالاستبداد إبان الاحتلال العثماني لبلادنا العربية، وبالاستعمار الغربي والصهيوني الاستيطاني قام الشعراء بمقاومة أساليب الاستعمار وفضح جرائمه، وحث الشعب على مناهضة الطغاة والمستبدين والمستعمرين، وتأكيد إرادة الحياة والصمود، وتمجيد الشهادة والشهداء، والتشبث بالأرض والجذور، وتعزيز الوحدة الوطنية، والتفاؤل بالنصر على الأعداء.

وتجدر الإشارة إلى أن شاعر المقاومة الحقيقي يعلم يقيناً أن الكلمة في بساطتها وتواضعها هي سلاحه، ولكن هذه الكلمة عينها في نقائها وصفائها وثوريتها وصدقها سلاح فعال.

1. **الدفاع عن الهوية وإثبات الذات العربية:** لما كانت اللغة العربية هي هوية الأمة ورمز كيانها القومي حاول المستبدون الأتراك من جماعة الاتحاد والترقي تهميشها واستبعادها وفرض اللغة التركية مكانها، ولم تكن محاولتهم سرية وإنما صرحوا بها على الملأ فها هو ذا أحمد شريف محرر جريدة «طنين» التركية يقول فيها: «ما يزال العرب يلهجون بلغتهم، فمن واجبات الحكومة في هذه الحال أن تنسيهم لغتهم، وتجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم، فإذا أهملت الحكومة هذا الواجب كانت كمن تسعى إلى حتفها بظلفها، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون آجلاً أو عاجلاً على استرجاع مجدهم الضائع، وتشييد دولة عربية جديدة على أنقاض دولة الأتراك».

ولكنَّ الأحرار من العرب قاوموا هذه السياسة الرعناء، ورفعوا أصواتهم احتجاجاً على هذه الممارسات الظالمة، وتجلّى ذلك في الشعر العربي، فها هو ذا الشاعر سليمان التاجي الفاروقي يرفع رسالة إلى السلطان العثماني محمد رشاد يوضح له فيها دور العرب في الدولة العثمانية، ويبيّن الإجراءات التي تتبعها السلطات لإقصاء العربية وحظر تعليمها في المدارس، ومما جاء في هذه الرسالة:

العربُ لا شقيت في عهدك العربُ ... سيوفُ ملكك والأقلامُ والكتبُ
وكل خيرٍ أتى فالعرب مصدرُهُ ... بل أي فضل أتى لم تحوه العرب
لسانُهم أخلق الإهمالَ جدَّته ... فبات ينعى على الكتاب ما كتبوا
تفشّتِ اللهجة العجماءُ فيه ... إلى أن أنكرته بنوه الخُلّص النجبُ
بضع وعشرون مليوناً لهم لغة ... تموتُ ما بينهم يا شدَّ ما غلبوا
هذي المدارس محظورٌ تعلمها ... فيها فمن أين نبغي؟ كيف تكتسب؟

بيدَ أن السوريين ظلوا متمسكين بلغتهم، لغة قرآنهم العربي، وقاوموا كل المحاولات الرامية إلى إبعادها، واعتمدوها لغة التعليم والحياة في جميع ميادينها، ولم تفلح محاولات المستعمرين الفرنسيين أيضاً في إبعادها وفرض الفرنسية مكانها، وتحطمت هذه المحاولات كافة على صخرة التمسك بالهوية العربية والثقافة العربية متمثلة في اللغة العربية، ولقد أشاد بعض الموضوعيين من الفرنسيين بالموقف الذي أبداه السوريون تجاه لغتهم فها هو ذا السيد «بونور» مدير المعارف العام في المفوضية العليا إبان الانتداب الفرنسي يخاطب أساتذة الجامعة السورية الذين اعتمدوا اللغة الأم «العربية الفصيحة» في العملية التعليمية التعلمية مهنئاً إياهم إذ يقول: «إنني أهنئ العرب، وأتمنى ألا يضيعوا هذا الاحترام المقدر للغتهم، لأن من يدافع عن لغته، يدافع عن أصله، وعن حقه، وعن كيانه، وعن لحمه، ودمه، وإنكم تفهمتم هذا الأمر جيداً».

وبقي السوريون متمسكين بهويتهم العربية، وراح الشعراء العرب يعززون الروابط القومية التي تجمع بين أبناء الأمة، وفي طليعتها اللغة العربية، إذ يقول الرصافي:

وتجمعنـــا جوامـــعُ كبريـــاتٌ وأولهـــن ســـيّدة اللغـــات

ويقول شوقي:

ويجمعنـــا إذا اختلفـــت بـــلادٌ بيـــانٌ غـــير مختلـــف ونطـــقُ

ويقول حليم دموس:

لغـــةٌ إذا وقعـــت علـــى أسماعنـــا كانـــت لنـــا بـــرداً علـــى الأكبـــادِ

ســـتظل رابطـــةً تؤلـــف بيننـــا فهـــي الرجـــاء لنـــاطقٍ بالضـــادِ

وقاوم الشعراء العرب الدعوات الرامية إلى تمجيد الإقليمية والقطرية على الأرض العربية مؤكدين أن الأرض العربية هي أرض العرب جميعاً، وما أجمل قول الشيخ محب الدين الخطيب:

لبيـــك يـــا أرض العروبـــة واسمعـــي ما شئت من شدوي ومن إنشادي

أنـــا لا أفـــرق بـــين أهلـــك إنهـــم أهلـــي وأنـــت بلادهـــم وبـــلادي

لـــكِ في دمـــي حـــقُّ الوفـــاء وإنـــه بـــاقٍ علـــى الحـــدثانِ والآمـــاد

ولقـــد برئـــتُ إليـــكِ مـــن وطنيـــةٍ بـــتراءَ تـــؤثر مـــوطن المـــيلادِ

وبقي الانتماء للعروبة أرضاً ولغة وهوية سلاح الشعراء المقاومين في الأرض المحتلة، ويقف الشاعر محمود درويش أمام العتاة الصهاينة المجرمين صارخاً في وجههم:

ســـــــــــــــــــــجل !

أنـــــــــــــا عـــــــــــــربي

ورقـــــم بطـــــاقتي خمســـــون ألـــــف

وأطفـــــــــــــالي ثمانيـــــــــــــةٌ

وتاســـعهم ..ســـيأتي بعـــد صـــيف !

فهـــــــــــل تغضـــــــــــب ؟

★★

ســـــــــــــــــــــجّل

أنـــــــــــــا عـــــــــــــربي

وأعمـــل مـــع رفـــاق الكـــدح في محجـــر

وأطفـــــــــــــالي ثمانيـــــــــــــةٌ

أســـــلُّ لهـــــم رغيـــــف الخبـــــز

والأثـــــــــواب والـــــــــدفتر

مـــــــــن الصـــــــــخر...

ولا أتوســل الصــدقاتِ مــن بابــك

ولا أصـــــــــــــــــــــغر

أمـــــــام بـــــــلاط أعتابـــــــك

فهـــــــــل تغضـــــــــب ؟

2. **فضـح جـرائم الطغـاة والمسـتعمرين:** راح الشـعراء يفضـحون الجـرائم الـتي ارتكبهـا الطغـاة المستبدون والمستعمرون المجرمون منذ مطلع القرن الماضي وحتى يومنا هذا، فها هو ذا الرصافي يثور ضد الحكام المستبدين منددا بأعمالهم قائلاً:

حكومـة شـعبنا جـارت وصـارت علينـــا تســـتبدُّ بمـــا أشـــارت

فـلا أحـداً دعتـه ولا استشـارت وكـل حكومـة ظلمـت وجـارت

فبشـــــرها بتمزيـــــق الجلـــــود

كما أن الزهاوي يصوّر تعليق الأحرار المناوئين للاستبداد العثماني على أعواد المشانق قائلاً:

علـى كـل عـود صـاحب وخليـلُ وفي كـــل بيـــت رنـــة وعويـــلُ

دنـوا فرقوهـا واحـداً بعـد واحـدٍ وقـالوا كلامـاً لـيس فيـه فضـولُ

ومن الكلام الذي ردده هؤلاء الشهداء «مرحباً بك يا أرجوحة الأبطال، إن دماءَنا سوف تكون نوراً وناراً، نوراً يضيء الطريق أمام أجيال الأمة، وناراً تحرقكم أيها الظالمون».

ويثور الشابي في وجه المستبدين قائلاً:

ألا أيهـــا الظـــالم المســـتبدُّ حبيـــبُ الفنـــاء عـــدوّ الحيـــاة

سـخرت بأنـات شـعب ضـعيف وكفـــك مخضـــوبةٌ مـــن دمـــاه

ورحـــت تـــدنس ســـحر الوجـــود وتبـــذر شـــوك الأســـى في ربـــاه

ويعدد الزركلي الأعمال الإجرامية التي قام بها المستعمرون الفرنسيون في سورية في قوله:

ويـــح الفرنجـــة مـــاذا في حلـــومهم ؟ في الـرأي خـرقٌ وفي الأعمـال تضـييع

الظلـم في عـرفهم عـدل ومرحمـةٌ والأمـــر بالباطـــل المنبـــوذ تشـــريع

مـاذا يعـدون مـن فخـرٍ أفـتكُهُمُ بـــالمطفلات يـــواريهن تقنيـــع؟

أم بالجوائـــب آفـــاق الفضـــاء لها بالمقعـدين وبالأطفـال تفجيـع؟

ويصور الشاعر بدوي الجبل الأعمال الإجرامية التي قام بها العدو الصهيوني في فلسطين عندما يقول:

يحـــرق المـــدن والعـــذارى ســـبايا وصـــــغير لذبحـــــه وكبـــــير

دينـــه الحـــرق والإبـــادة والحقـــدُ وشـــتم الأعـــراض والتشـــهير
صـــوَّرته التـــوراةُ بالفتـــك والتـــد مـــير حـــتى ليفـــزع التصـــوير

كما يصوّر معاناة اللاجئين الفلسطينيين في مخيماتهم إذ يقول:

الخيـــــام الممَّزقـــــات وأم في الزوايـــا وكســـرةٌ وحصـــيرُ
وفتـــاة أذلهـــا العـــري والجـــوعُ ويلهـــو بالرمـــل طفـــلٌ صـــغيرُ
كلمـــا أنَّ في الخيـــام شـــريدٌ خَجِـــل القصـــرُ والفـــراشُ الـــوثيرُ

3. **حث الشعب على مناهضة الطغيان:** لقد دعا المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي أبناء الأمة إلى الثورة ضدّ الاستبداد العثماني مستنكراً عليهم الخضوع ومذكراً لهم بأن النبات يطلب العلو وهم يطلبون الانخفاض، وأن البهائم تود لو تنتصب قامتها، في حين أنهم من كثرة الخضوع كادت أيديهم أن تصير قوائم.

ويستنهض الرَّصافي أبناء الأمة قائلاً:

ألســنا الأُلى كانــت قــديماً بلادنــا بأرجائهــا نــور العدالــة يســطع
فمــا بالُنــا نســتقبل الضــيم بالرّضــا ونعنــو لحكــم الجــائرين ونخضــع؟
شــربنا حمــيم الــذل مــلء بطوننــا ولا نحــن نشــكوه ولا نحــن نيجــعُ
نهوضــاً إلى العــزّ الصــراح بعزمــة تخــرُّ لمرماهــا الطغــاة وتركــع
ألا فاكتبوا صك النهوض إلى العلا فــإني علــى مــوتي بــه لموقّــع

وها هو ذا الشيخ إبراهيم اليازجي يدعو أبناء قومه إلى اليقظة والثورة قائلاً:

تنبهــوا واســتفيقوا أيهــا العــرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

ويرى الشاعر أبو ماضي أن الجهاد هو سبيل الأمة في استرجاع فلسطين إذ يقول:

لا تقعــدَنَّ عــن الجهــادِ إلى غــدٍ فلقــد يجــيء غــدٌ وأنــت غبــار
أحببْ بــلادَك بــاذلاً ومضــحياً حبــاً بــه الإخــلاص والإيثــار
ودعِ المنــافق لا تثــق بوعــوده وطــنُ المنــافقِ فضــةٌ ونضــار
كــم معشــرٍ خلنــاهُمُ أنصــارنا فــإذا هُــمُ لِعــداتنا أنصــارُ

وغنّى نزار القباني للوطن وللعرب، وهزهم ورثى لهم، وصرخ عالياً ليوقظهم، فظن الغافلون أنه يهزأ بهم أو يشتمهم، وما عرفوا أن نقد الإصلاح يستحيل أن يكون للهدم وإنما هو للبناء، ألا يحق لنزار آن يغضب ويثور ويتألم شأن كل عربي؟ ألا يحق له أن يهاجم التخاذل والمتخاذلين والمهرولين؟ أليس من حقه أن يبكي لما آل إليه حال العرب من ذل وهوان، ولاسيما بعد أن أصبح نفر من أبناء الأمة عبيداً لدى إسرائيل يحافظون على أمنها، ويضيقون الخناق على الأحرار المقاتلين الذين رفضوا

ويرفضون الاستسلام؟

4. **تأكيد إرادة التحدي والصمود:** لقد استخدم الطغاة مختلف الأساليب لكسر إرادة الشعب، وإجباره على التخلي عن إرادة الحياة، في الوقت الذي بقي فيه المقاومون الأحرار يفوّتون عليه الرضوخ لتلك الأساليب، وها هو ذا الشاعر يقول:

كسّروا الأقلام، هل تكسيرها يمنع الأيدي أن تنقش صخرا؟
قطّعوا الأيدي هل تقطيعها يمنع الأقدام أن تركب بحرا؟
قطّعوا الأقدام هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزرا؟
أخمدوا الأنفاس هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم فشكرا

وعلى الرغم من عدم التكافؤ بين أسلحة المقاومين وأسلحة الجيش الفرنسي إبان ضربه دمشق بالقنابل والطائرات وزحفه بالدبابات ظل المقاومون مستمرين في مقاومتهم، وها هو ذا الشاعر الزركلي يصوّر صمود المقاومين:

سيموا الأذاة فلم يحنوا رقابهم ذلاً ولا استسلموا والأنف مجدوعُ
ذادوا العداة بأسياف محدّبة غرارها بشعار الحق مطبوعُ
ما أُمضي الحقّ محجوداً بمثل دمٍ كأنه لكتاب الحقّ توقيعُ

وحمل الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود روحه على راحته:

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرُّ الصديق وإما ممات يغيظ العدى

وتثور ثائرة الشاعر يوسف الخطيب، وتتأجج عواطفه فيصرخ قائلاً:

أنا مشعل، أنا مارج جبّار لا الريح تخمدني ولا الإعصار
سأمد في الآفاق ألسنة اللظى حمراً لها في الخافقين أوار
ولأحرقن الليل حتى تنجلي أسدافه فتوقدي يا نار
للميتين دموعهم وجراحهم ولجذوتي ساح الوغى والثار

ويتحول الشاعر نزار القباني من شاعر يكتب شعر الحب إلى شاعر مقاوم إذ يقول:

يا وطني الحزين
حوّلتني في لحظة
من شاعر
يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر:

يكتـــــــــب بالســـــــــكين!

ويؤمن الشاعر إيماناً عميقاً أن لا طريق للخلاص من الاستعمار الصهيوني الاستيطاني إلا طريق المقاومة والقوة لاسترداد الحقوق المغتصبة، فيقول:

أصـــبح عنـــدي الآن بندقيـــة
قولـوا لمـن يسـأل عـن قضـيتي
بـارودتي صـارت هـي القضـية
يـــــا أيهـــــا الثـــــوار
في القـــــــــــــــدس
في الخليـــــل، في بيســـــان
في بيـــــــت لحـــــــم
حيـــث كنـــتم أيهـــا الثـــوار
تقـــــــدموا إلى فلســـــــطين
طريـق واحـد يمرُّ مـن فوهـة بندقيـة

وكان الشاعر بدوي الجبل يؤمن أن القوة هي السبيل للحفاظ على الحقوق:

الشـرع مـا سـنَّ القـوي بسـيفه
فلســـيفه التحـــريمُ والتحليـــلُ

وتعززت إرادة الحياة، وتعزز الصمود في مواقف شعراء الأرض المحتلة في فلسطين فها هو ذا الشاعر توفيق زياد يقول:

القريـة السـمراء قـد شـابت مـن الصـبر
والعـين شـح المـاء فيهـا فهـي لا تجـري
وأرضنا...يسـلبها الظـلام للغـير
لم يبـق يـا أمـي غـير المـل والصـخر
لكننـا نصـمد كـالفولاذ للـدهر
وكيـــــــــــــــف لا ؟
وفي دمانـــا ألـــف نســـر

وينادي محمود درويش الصخرة التي صلى عليها والده قائلاً:

يـا صـخرة صلَّى عليهـا والـدي لتصـون ثـائر
أنـــا لـــن أبيعـــك بـــاللآلئ

أنا لن أسافر...لن أسافر...لن أسافر

ومهما تكُ أساليب الصهاينة فإن الشعب لن يتخلى عن مقاومته كما عبر عن ذلك الشاعر سميح القاسم عندما يقول:

ربما تسلبني آخر شبر من ترابي
ربما تطعم للسجن شبابي
ربما تسطو على ميراث جدي
من أثاث..وأوانٍ..وخوابي
( ) يا عدو الشمس..لكن..لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم

وسيبقى الشاعر سليمان العيسى شاعراً يغني للقدس وتاريخها ومجدها وسيبقى متجذراً في أعماق الصحارى والزمان، فها هو ذا يقول:

شاعراً للقدس، إنساناً سأبقى
كجذور السنديان
كالصحارى، كالزمان
سوف أبقى
سوف أبقى

وستظل حجارة أطفال غزة أسطورة تروى مدى الحقب على حدّ تعبير الشاعر محمد طارق الخضراء:

أطفال غزة مازالت حجارتكم أسطورة خَلَدَتْ تروى مدى الحقب
وصفحة في جبين الدهر مشرقة إن غابت الشمس فهي الشمس لم تغِبِ

5. **التشبث بالأرض وبالجذور**: تعد الأرض جزءاً من كيان المرء، وهي ماضيه وحاضره لا يحياه لولاها كما يقول بدر شاكر السيّاب:

لأعرف أنها أرضي
لأعرف أنها بعضي
لأعرف أنها ماضيَّ لا أحياه لولاها
وأني ميت لولاه أمشي بين موتاها

وأرض فلسطين هي جلد عظم الشاعر محمود درويش إذ يقول:

هذه الأرض جلد عظمي وقلبي فوق أعشابها يطير كنحلة

ويتساءَل:

مـــــا قيمـــــة الإنســـــان

بـــــــــلا وطـــــــــن

بـــــــــلا علـــــــــم

ودونمـــــــــا عنـــــــــوان

مـــــا قيمـــــة الإنســـــان؟

وإذا كان المرء يدافع عن أرضه فلأن ترابها يحكي نضال الآباء والأجداد فهو بالدمع ممتزج كما يقول الشاعر بدر الدين الحامد:

هــذا الــتراب دمٌ بالــدمع ممتــزجٌ تهب منه على الأجيال أنسامُ

وهذا ما عبّر عنه الشاعر أبو سلمى في قوله:

لا تقــل هــذا تــرابٌ جامــدٌ إنمــا الأَحيــاءُ في هــذا الجمــادِ

واحفـظِ الأَجيـال في هـذا الثـرى فالـدم الحـرُّ مـن الـترب ينـادي

وتمسح الشاعرة «فدوى طوقان» دموعها، وتغرس قدمها في أرضها، وتتشبث بتراب وطنها فتقول في قصيدتها «لن أبكي»:

أحبـائي، مصـابيح الـدجى، يـا أخـوتي في الجـرح

علـــــى طرقـــــاتكم أمضـــــي

وهـــــا أنـــــا بـــــين أعيـــــنكم

ألملمهـــا وأمســـحها دمـــوع الأمـــس

وأزرع مـــثلكم قـــدميَّ في وطـــني وفي أرضـــي

وأزرع مـــثلكم عيـــنيَّ في درب الســـنى والشـــمس

وإذا كان شاعر الأرض المحتلة سميح القاسم متشبثاً بأرضه فلأن اختلاج الروح في البذرة أقوى من الصخرة:

لـــــو حـــــززوني مثـــــل ليمونـــــة

تبقـــــين لي في الصـــــدر أيقونـــــة

تبقـــــين لي لـــــو فتتـــــوا بـــــدني

فأصـــــير بعـــــض غبـــــار زيتونـــــة

ويقول:

إن اخـــــتلاج الـــــروح في البـــــذرة

أقـــــوى مـــــن الصـــــخرة

وجـذورنا في رحـم هـذي الأرض ممتـدة

ويرى محمود درويش أن الأقانيم الثلاثة متمثلة في الأرض والفلاح والأحرار لا يمكن أن تقهر:

فاحموا سنابلكم من الإعصار بالقدم المسمر

هـــاتوا الســـياج مـــن الصـــدور

مـــن الصـــدور فكيـــف تكســـر؟

اقبض على عنق السنابل مثلما عانقت خنجر

الأرض والفلاح والأحرار قل لي: كيف تقهر؟

هـذي الأقـانيم الثلاثـة كيـف تقهـر؟

وها هم أولاء أطفال فلسطين لا يملكون سوى الحجارة في مواجهة أعتى قوى الإرهاب، ولكنهم متشبثون بأرضهم وبشمسهم كما صوّر ذلك الشاعر سليمان العيسى في قوله بمناسبة القدس عاصمة للثقافة العربية:

أطفالنا المتشبثون بأرضهم وبشمسهم

وبزهـرة الرمـان والزيتـون في أيـديهُمُ

لا يملكـــون ســـوى الحجـــارة

أبطالنا المتشبثون بأرضهم وبشمسهم

وبزهـرة الرمـان والزيتـون في أيـديهُمُ

هُـمُ تحيـيُ ثوبَهـا القـدسُ الجـريحُ

مطـــــــــرزاً بـــــــــالأرجوان

وتســـــتعدُّ لعرســـها العـــربيّ

قالـــــــــت لي الحجـــــــــارة

6. **تمجيد الشهادة والشهداء:** ما عرفت أمتنا العربية عبر تاريخها الرضوخ والاستكانة والهوان، فعاشت عزيزة الجانب، تأبى المذلة، وتدافع عن الكرامة، وتقدم قوافل الشهداء إيماناً منها أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون انطلاقاً من قوله تعالى: «ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون».

وكان المجاهدون في أثناء الغزوات والفتوحات يقدمون أرواحهم رخيصة في الذود عن الحمى والدفاع عن العقيدة والكرامة، وتلك هي من سجايا هذه الأمة في تمجيد الشهادة والشهداء، على أن الشهداء أكرم من في الدنيا، وأنبل بني البشر كما قال القائد الخالد حافظ الأسد.

ولقد تغنّى الشعراء في حياتنا المعاصرة ببطولات المناضلين ومجدوا الشهادة، فها هو ذا الشاعر

القروي يقول في شهداء السادس من أيار:

خـيرُ المطـالع تسـليمٌ علـى الشـهدا أزكـى الصـلاة علـى أرواحهـم أبـدا

فلتـنحنِ الهـامُ إجـلالاً وتكرمـة لكـل حرٍّ عـن الأوطـانِ مـات فـدا

كما أن أمير الشعراء يشيد ببطولة القائد يوسف العظمة في تصديه للفرنسيين إذ يقول:

سـأذكر مـا حييـتُ جـدار قـبرٍ بظـاهر جلّـق ركـب الرمـالا

مقـيمٌ مـا أقامـت ميسـلون يـذكر مصـرع الأسـد الشـبالا

كما يتغنى ببطولة القائد عمر المختار في تصديه للاستعمار الإيطالي قائلاً:

ركـزوا رفاتـك في الرمـال لـواء يسـتنهض الـوادي صـباح مسـاء

يـا ويحهـم نصـبوا منـاراً مـن دم يـوحي إلى جيـل الغـد البغضـاءَ

جرح يصيح على المدى وضـحيةٌ تـتلمس الحريـة الحمـراءَ

7. **بث التفاؤل في النفوس:** غني عن البيان أن التفاؤل يمد المرء بالقوة والثبات، ويدفعه إلى متابعة النضال، وأن الأعداء يرومون دائماً غرس بذور التثبيط والتيئيس في النفوس لثنيها عن متابعة الكفاح، ولقد منيت أمتنا بنكبات، وعانت الأرزاء، وظنّ أعداؤها أنها أضحت في عالم الأموات، إلا أنها بقيت صامدة عصيّة على الاستسلام، وما أجمل قول المتنبي:

كـم قـد قُتلت، وكـم قـدمتُ عندهم ثم انتفضـت، فـزال القـبر والكفـنُ!

لقد تفاءل شعراء اللجوء والتشرد بالعودة إلى أرضهم السليبة، وطالما عزفوا على وتر العودة وأنها قادمة لا محالة، فها هو ذا الشاعر أبو سلمى يقول:

ويسـألني الرفـاق ألا لقـاء؟

وهـل مـن عـودةٍ بعـد الغيـاب؟

أجـل، سـنقبّل الـترب المنـدى

وفـوق شـفاهنا حمـرُ الرّغـاب

أجـل، سـتعود آلاف الضـحايا

ضـحايا الظلـم تفـتح كـل بـاب

وها هو ذا الشاعر بدوي الجبل يرى أن المحتلين الغزاة لا محالة زائلون:

سـألوني عـن الغـزاة فجاوبـتُ ريـاح هبَّـت ونحـن ثبـيرُ

سـألوني عـن الغـزاة فجاوبـتُ رمـالٌ تُسـفى ونحـن الصـخورُ

سـألوني عـن الغـزاة فجاوبـتُ ليـالٍ تمضـي ونحـن الـدهورُ

وتتأتى رؤيته من أن النصر دائماً وأبداً للشعوب لا للطغاة، لأن الشعب هو القوي، أما الطاغية المستبد فهو الضعيف:

كل طاغٍ - مهما استبد – ضعيف كل شعبٍ – مهما استكان – قديرُ

وهب الله بعض أسمائه للشعب، فهو القديرُ، وهو الغفورُ

وهذا ما عبّر عنه شاعر الأرض المحتلة توفيق زياد عندما يقول:

كل ما أدريه أن الأرض حبلى والسنين

كل ما أدريه أن الحق لا يفنى

ولا يقوى عليه غاصبون

وعلى أرضي هذي لم يعمر فاتحون

وكان أبو القاسم الشابي من قبلُ قد أكد أنه لابدّ لليل أن ينجلي ولابدّ للقيد أن ينكسر إذا الشعب يوماً أراد الحياة، وحذّر المستبد الظالم من أن سيل الدماء سيجرفه عندما يقول:

سيجرفك السيل سيلُ الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

كما أن الشاعر نزار القباني متفائل من أن الليمون سيزهر غداً في قوله:

يا قدس يا مدينتي

يا قدس يا حبيبتي

غداً سيزهر الليمون

وتفرح السنابل الخضراء والزيتون

وآمن شاعرنا إيماناً عميقاً بالجذور، وبالوجود الحقيقي الشامل "الحنطة والليمون والرياح والغصون" والإيمان بجدلية الحياة، الإيمان الذي يرى في أعماق اليأس أملاً:

مهما هم تأخروا فإنهم يأتون

في حبة الحنطة..أو في حبة الليمون

يأتون في الأشجار،

والرياح،

والغصون.

من حزننا الجميل ينبتون

أشجار كبرياء

ومن شقوق الصخر يولدون

باقة أنبياء

ليســــــــت لهـــــــم هويـــــــة
ليســــــــت لهـــــــم أسمـــــــاء
لكـــــــــــنهم يـــــــــــأتون
لكـــــــــــنهم يـــــــــــأتون..

المراجع

1. الدكتور غالي شكري – أدب المقاومة – دار الآفاق الجديدة – بيروت ط2 1979.
2. نزار قباني شاعر لكل الأجيال – بإشراف الدكتورة سعاد من الصباح – دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع – الكويت 1998.
3. الدكتور محمود أحمد السيّد – اللغة العربية وتحديات العصر – وزارة الثقافة – الهيئة العامة السورية للكتاب – دمشق 2008.
4. وزارة الثقافة – الهيئة العامة السورية للكتاب – محمود درويش – سجّل أنا عربي – دمشق 2008.